

سلطة الفلسفة

ترجمة: محمد ميلاد

هانس جورج غادامير يحاوره كل من فيليب فورجييه وجاك لوريدير. يعتبر غادامير المولود عام 1900 في بريسلو من الشخصيات التي تسيطر على المشهد الفلسفى الألماني. قدم سنة 1929 أطروحته للتأهيل مع مارتن هайдغر، وبعد أن عمل كأستاذ في ليزيغ ثم في فرنكفورت خلف عام 1949 كارل جاسبر KARL JASPERS في منصب أستاذ كرسى لتدريس الفلسفة في جامعة هايدلبرغ. لقد أثر هانس جورج غادامير بعمق في التطور المعاصر للعلوم الإنسانية في ألمانيا وتشهد على ذلك مجادلته الباهرة مع يورغن هابرماز (ويبدأ الحوار):

- عنوان عملك الأساسي "حقيقة ومنهج" من شأنه أن يتثير خلافات، خصوصاً في فرنسا. ماذا يضم وما هي بصورة أعم هذه التأويلية التي تريد تأسيسها؟

غادامير: لا يؤدي العنوان دوره إذا ما كشف عن كل ما يريد أن يقوله الكتاب. بل عليه، عكس ذلك، أن يجند حقول التفكير التي تشير حس الجمهور. فعلاً إن الصيغة التي وجدتها غامضة إلى حد أن النقاد اعتقادوا أن الكتاب يتعلق تارة بأخر منهج للوصول إلى الحقيقة، وتطوراً بإدانة جذرية للحقيقة! إن خلافات متطرفة إلى هذا الحد هي في الواقع منمرة.. وأنطلق في تأويليتي من فكرة مفادها أنه يجب "نزع الصفة المطلقة" Désabsolutiser عن المثل الأعلى للمنهج، هذا المثل المستخرج من العلوم الصحيحة. هدفي هو نظام ما discipline لا بمعنى الفرع الخاص بالمعرفة بل أقصد الموقف المتمس بالدقابة والصرامة - يشمل السيطرة على المنهج عبر تجاوزه. بعد مرور عشرين عاماً على ظهور الكتاب في ألمانيا، تبدو لي هذه الفكرة راهنة أكثر من سواها، لأنه لم يقع التعرف عليها حقاً من قبل منظرينا الذي ظلوا يتصورون أن مسألة العلم وصحته حل للألغاز العالم. لكننا ننسى أن العلم لا يعرف العالم ولا يفتحه إلا في اتجاه خاص.

- وفيما يتعلق بالعلوم الإنسانية، أين تتمفصل تأويليتك مادياً؟

غادامير: ما يميز العلوم الإنسانية هو إنها لا تستخدم مناهج معروفة فقط بل قدرة على الفهم كذلك تتطور لدى القارئ والباحث والمفكر تتجاوز القدرات التي نكتسبها عقلياً. يجب أن نتساءل هنا: ما هو الفهم؟ أوسع في تأويليتي البعد الجديد الذي أعطاه هيدغر لهذا المفهوم: ليس الفهم شكلًا خاصًا للعلاقة بالعالم بل هو "أصل كينوني" un existential، هو شكل

الكينونة نفسها للوجود في العالم. خلافاً لما يمكن أن تفكّر فيه، يتعلّق الأمر هنا بتصور عملي للغاية لا يعبر عن محدودية ما للعلم بقدر ما يعبر عن كونه شرطاً ضرورياً لنشاطه. لا يتعلّق بالنسبة لي بأنّ نقول كيف يجب الفهم، بل ماذا يحدث فعلياً أثناء الفهم. إنه في الواقع تقليد الفلسفة العملية الذي يرجع إلى أرسطو والذي احتفى في النهاية تحت تأثير المثل الأعلى العلمي الحديث: إن تحول السياسة إلى "علوم سياسية" يبدو لي نموذجياً في هذا الصدد، وأعتقد أن دور الفيلسوف اليوم يجب أن يتمثّل أولاً في وضع أهمية الخبرير المتنامية موضع الاتهام فهو الذي يقترف كل أنواع الأخطاء لأنّه لا يريد أن يعي بوجهات النظر المعيارية التي توجّهه. تهدف التأويلية بخلاف ذلك إلى جلب الخطط المكونة للفهم إلى حقل الوعي لجعلها مثمرة عبر القرار الذي تتطلّبه الحالة المجمّسة.

- تصر باستمرار على حضور التاريخ أو التقليد المتوارث. يرى يورغن هابرماز في ذلك، إجمالاً، تعبيراً عن نزعة محافظة conservatism ماهي إجابتك؟

غادامي: عندما يقع الإصرار بذلك القدر على تاريخية الفهم وبالتالي على انغماسه في تيارات التقليد، أفهم أننا نعرض أنفسنا للتفسير العكوس الذي يعتقد من خلاله أنّه تستسلم للطفو بدل السباحة! يتعلق الأمر بقضية خطأة. يؤمّن هابرماز مثلّي بإمكانيات الحوار المثالية لكنه يعتقد كذلك أنّ هذا المثل الأعلى يمكن بلوغه عن طريق تطور علم الاجتماع وسياسة مبنية عليه. إنه يؤمّن إذن بإمكانية التحقق السياسي لهذا المثل الأعلى. كما أتى لفت نظر هابرماز إلى أنّ مثل الحوار التحليلي-الفنسي الذي يريد تطبيقه على علم الاجتماع غير مقبول في الواقع، لأنّ هذا الحوار يفترض أن يضع المريض ثقته في الطبيب. لكن لا وجود لعالم اجتماع يسلم إليه مجتمع ضل وجهته أمره، وإذا ما وجد لن يكون هناك مجتمع يسلم أمره إليه، لكن يبدو أنّ هابرماز لم يشا فهم هذا الفرق بين الاختصاصي والعقل السياسي.

يأسف هابرماز كذلك لغياب نية نقدية لدى وغياب الشغف بالتحرر الذي نجده في فكرة العقل مثلاً تقدمها فلسفة الأنوار. سأقول هنا أمرين: أولاً صحيح أن ثقافتنا تقوم على تصور أحدادي الجانب للعقل المرووث من الأنوار لكن كذلك على ما يصحح هذه الأحادية. إنها نقطة بدأ التأكيد منها في فرنسا كذلك، إذا ما حكمت على الأمر انطلاقاً من اكتشاف الجمالية الرومانسية منذ مورييس بلانشو. لكنني ذكرت أيضاً في "حقيقة ومنهج" أن موروثنا الرومانسي يحبّ إلا يتعارض مع الفكر المستوحى من التقليد المتوارث عن الأنوار. فهو يبرز تعرجات حدوده، ويجب على لعبة التفاعل هذه، في رأيي أن تفتح الطريق لفكر مثمر. أما فيما يخص المسألة المتعلقة بمعرفة ما إذا كان للتقليد المتوارث بعد نقيدي، فإني أجيب بكلّ وضوح: النّقد موجود في كلّ فكر حقيقي؛ لا وجود لفكرة دون مسافة تتجلى في كلّ موقف للمساءلة. ولا وجود لسؤال دون وعي بأنّ لكلّ سؤال إجابات عديدة ممكنة.

- جدلية السؤال والجواب هذه، التي تتبّع عبرها حركة الفهم الشاملة يمكن أن تفضي إلى خلاف آخر: إذا كان السؤال أهم من الجواب، لا يقودك ذلك إلى رفض الالتزام السّاسى؟

غادامير: أسلم بطيبة خاطر أن الفيلسوف كفيف ليس من المهين لأخذ القرارات السياسية: تذكر أفالاطون... من جهة أخرى لمحت منذ قليل إلى أن الالتزام ي العمل في كل عملية فهم. إلا أن الأمر لا يتعلق بالالتزام باسم قضية سياسية معينة. هذا الالتزام يعني الفيلسوف كشخص بينما ينبغي ألا تكون فلسفته ملتزمة بالمعنى نفسه: فهي لا نموذجية *atopique* أي غير مرتبطة بموقف مقرر سلفا وهي إذن تمتلك حرية الالتزام بما تريد. حتى أكمل ما قلته منذ لحظة، أذكر بأن الفهم يمثل مشروعًا على الدوام وبأنه يرهن دائمًا في داخله بعد المتعلق بالمستقبل والآتي، بحيث إنك إذا ما سألتني الآن: "ما ضرورة الفلسفة الآن؟" أجيبك بأننا نعيش في حضارة تزعزع فيها التحديات التي نواجهها تراث الحقائق الذي يعتمد عليه فكرنا. من الواضح أكثر فأكثر أن الحضارة التكنولوجية دخلت في طريق مسدود.

لم يعد أحد يعتقد اليوم، ربما باستثناء بعض الخبراء، أن العقلية الصناعية تتيح حقاً تفتح القدرات البشرية. إننا نعيش لأول مرة على مستوى الكوكب التقى التقاليد المختلفة جداً. جهلنا للمستقبل يمنعنا من الاعتقاد بأن العقلية الصناعية في أوروبا وأمريكا الشمالية يمكن أن تقدم لنا جواباً نهائياً عن أسئلتنا. بهذا المعنى تمثل الحداثة *Actualité* الحقيقة للتأويلية في فرض ضرورة التسامح على ضمائرنا وفسح المجال لأجوبة جديدة. أرى أن عالم اليوم لم يحقق تقدماً في سبيل الحوار، الحوار الحقيقي (الذي لا صلة له بصورة السياسي التي نطلق عليها هذا الاسم) هو الذي يتتيح وحده التعرف على الآخر. كما أنه يعلمنا كذلك أنه لا يمكن لأحد الطرفين أن يكون وحده محقاً في رأيه.

- لديك الثقة إذن في "سلطة" الفلسفة؟

غادامير: إذا لم تفهم السلطة بمعنى السيطرة، بلا شك. غير أنه يجب ألا نتخيل أن الفلسفة، في عالم تهيكله العلوم الصحيحة (بما في ذلك ما يتعلق باسقاطها على العلوم الإنسانية)، يمكنها أن تدعى تتوبيح العالم الفكري مثلما تم ذلك سابقاً. كل ما في الأمر أن الفيلسوف يعي جهله أكثر من غيره، هذا مبدأ عام لكنه لا يكفي لتحميله مسؤولية العالم! بل أعتقد أن ذكاءه السياسي يتمثل في الوعي بالأوهام التي يخفيها الاعتقاد الأعمى في المعرفة المختصة وفكرة التقدم التي تحكم حضارتنا، حضارة الخبراء العلميين والتقنيين. تمثل وظيفة الفيلسوف في تقدير حد هذه الأوهام لدمج هذا الوعي في القرارات القادمة. هذا سبب خلافي مع يورغن هابرمان. أقول: "إنك تتصرف كما لو أن الفهم وال الحوار غير ممكنين البتة بسبب التفاوت بين الطبقات إلخ". لا أعتقد بأي شيء، أعتقد أن الأمر كان كذلك تماماً في أثينا مع سocrates. يتعلق بالنسبة إلى الفيلسوف بإبراز الصراع الأيدي بين طموح الاختصاصي إلى الخبرة الشاملة من ناحية، والشعور بالمسؤوليات السياسية من ناحية أخرى، هذا الشعور الذي لا يمكن أن يبني مشروعه على المعرفة المختصة.

-كنت تلميذا لهيدغر كما أنكم عرفته معرفة شخصية. كيف تفسر - بعد تقديم هذه الاعتبارات الخاصة بالفلسفة والسياسة - "خطأ التاريخي" سنة 1933 الذي سماه بلانشو "جرح الفكر المفتوح"؟

غادامير: يشق علينا اليوم أن نتصور إلى أي حد كانت الوضعية ملتبسة سنة 1933، كانت تلك "الثورة" محافظة وفاشية في الوقت نفسه؛ في حين أن هيدغر في الحقيقة لم يوضح أبداً علاقته بهذين الجانبيين من الوضعية السياسية. كانت الجامعات الألمانية بالنسبة إليه مؤسسات متحجرة تستولي عليها عبرقيته كما يُستولى على القلاع. وقادته مسيرته المدهشة من عمق البلاد (ماذا كان يمثل معهد كونستانس وجامعة فريبورغ - إن - برييسغو?) إلى الشهرة العالمية. وكان يرى في ذلك دليلاً على حيوية لا تقاوم لأصالة Brisgau- en- ursprünglichkeit الأصيل الذي يحمل فكره يحثه، قبل 1933 على التعاطف بوضوح مع الراديكالية النازية. بعد الحرب، عاشرت هيدغر كثيراً. لكننا لم نتحدث ثانيةً قط عن تلك الفترة. لقد فرقتنا الثلاثيات؛ مازلت أتذكر الصدمة التي أحسست بها عندما بعث إلى بكلمته الافتتاحية كرئيس جامعة - والتي تحمل كإهداء: "مع تحبتي الألمانية". كنت أنتظر إليه عادة بإجلال لكن ذلك كان مستحيلاً في تلك اللحظة. كان ينتظر من الانقلاب النازي تجدیداً في المناخ الفكري. لكنه سرعان ما قبر هذا الوهم.

بال مقابل، لم يُشف تماماً بلا شك من تحرزه من "تمدين الحياة" ولا من تعلقه ببساطة ريفية أصلية. نعرف حديثه الشهير المذاع عبر الراديو: "لما نبقي في الريف"؛ كان صريحاً عندما كان يقول إنه يفضل التحدث عن الطقس والماشية مع مزارعي القرية بدلاً من محادثة زملائه الفلاسفة محادثة علمية. لم يكن هيدغر بالتأكيد انتهازياً سنة 1933 لكنه استعمل، وقد انضم بقدر هام حقاً إلى ما كان يتصور إدراكه في النازية. لا أنكر شيئاً مع ذلك بخصوص تأثيره الفلسفـي علىـي. كنت بدأت مُسلـلـمنـا وـمـؤـرـخـاً لـلفـنـ. وقد خطـوتـ فيـ مـارـبـورـغـ خطـواتـيـ الأولىـ فيـ الـفـلـسـفـةـ وـشـهـدـتـ هـنـاكـ تـوـقـفـ الـكـانـطـيـةـ الـمـحـدـثـةـ. وـعـنـذـماـ لـاقـيـتـ هـيـدـغـرـ أـدـرـكـتـ أـنـ عـلـيـ أـتـعـلـمـ كـلـ شـيـءـ. قـرـرـتـ درـاسـةـ الـفـلـسـفـةـ الـكـلـاسـيـكـيـةـ تـحـتـ تـأـثـيرـهـ. كـانـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـ مـثـلـاـ إـلـىـ حدـ ما... إـلـاـ كـفـقـيـهـ لـغـوـيـ، ذـلـكـ مـاـ دـفـعـنـيـ إـلـىـ أـنـ أـكـوـنـ فـقـيـهـ لـغـوـيـ! أـعـتـقـدـ أـنـ لـمـ يـكـنـ لـفـكـرـيـ التـأـوـيـلـيـ أـنـ يـتـطـورـ بـشـكـلـ مـثـمـرـ مـنـ غـيـرـ هـذـهـ الـقـاعـدـةـ الـمـتـعـدـدـ الـاـخـتـصـاصـاتـ.

هناك مع ذلك نقطة تبعدني عن هيدغر. يبدو لي تفسيره للموروث اليوناني أحادي الجانب بشكل مفرط؛ من المتأكد ألا أحد بين مثله إلى أي حد ثقافتنا الغربية متجردة في الفكر اليوناني. لكن تصوره لـ "نسيان الكينونة" Seinsvergessenheit، ابتداءً من أفلاطون حتى الوصول إلى عهد التقنية يبدو لي محدوداً جداً. في رأيي يُغفل هيدغر أمراً وهو أن نسيان الكينونة يوازيه جهد دائم يتعلق بـ "ذكر الكينونة" seinserinnerung يعبر الأفلاطونية بكاملها؛ ويوضح الفكر الصوفي كله هذا الأمر بما في ذلك ما يتعلق به في الفكر الحديث.

هل ترى مناقص أخرى مماثلة في قراءاته لينتشه؟

غادامير: كلا، اطلاقاً: إذا كان هناك عمل تفسيري لهيدغر يبدو لي غير قابل للطعن فهو هذا العمل بلا شك. فالطريقة التي بين بها وحدة الإرادة الفعالة والعود الأيدي تعد مكتسباً محققاً. بخصوص كتاب آخرين، كنت أعتقد دائماً أن هيدغر يتعرف على النصوص بطريقة مثمرة جداً، ذلك صحيح. أما فيما يتعلق بنديشه، كان علي أن أقي السلاح. إن ذلك بلا شك أفضل ما قام به في هذا المجال، مع قراءاته لأرسنطو. أهمية هيدغر اليوم لا تدهشني، ما يدهشني كثيراً هو طريقة التعامل معه: يعتقد أنه من الممكن فهم هيدغر غير من غير أرسنطو؛ إنها مجرد مزحة في رأيي.

لقد كتبت عن هولدرلين، فهل تعتقد أن التفسير الذي قدمه هيدغر في هذا الصدد ثانوي؟
غادامير: أن أهميته لا تتمثل في فهم هولدرلين بقدر ما تتمثل في فهم هيدغر. أعمالي حول هولدرلين سابقة لأعمال هيدغر، فأنا لم أتأثر به في هذه الصدد. يسائل هيدغر نصوصه بنوع من "الطزاجة" دون أي وساطة، مثلما يقرأ التقويم توراته، عاكساً نفسه داخله.

إلى أي حد يمكن الحديث عن علاقة بين الشعر والفلسفة؟

غادامير: يوضح تأويلي للشعر ما هي التأويلية بالنسبة إلى: محاولة صياغة الجواب الذي تثيره فينا ملاقاة النص بقدر ما يمكن من الدقة. يعني ذلك أن يجب ألا تبرر قدر المستطاع ما يفترضه الأمر من بحث تاريخي وجمالي ولغوياً وأسلوبي... تتمثل مذكرة التأويلية الأساسية في إخضاع كل ذلك إلى غاية النص نفسه. وبالفعل لم تعد المهمتان بعيدتين عن بعضهما: يتعلق الأمر بالنسبة للفيلسوف كما هو شأن بالنسبة إلى الشاعر بایجاد صيغ تصورية قصد التعبير عمما تبينه لنا تجربة العالم. تتمثل مهمة كل منهما في الإجابة عن اللغة عبر اللغة. في هذا السياق يشكل التأويل غير المتقن dé-technicisé للشعر رهاناً خاصاً بالفلاسفة. تقوم أمام عمل فني ما بتتجربة الحقيقة التي لا يمكن بلوغها عبر أي طريق آخر؛ ذلك ما يعطي للفن معنى فلسفياً. مثلما هو شأن بالنسبة للتجربة الفلسفية، تحت التجربة الفنية الوعي العلمي على التعرف على حدوده.

لقد عبرت سابقاً عن أفكار مماثلة بخصوص الفيلسوف في المجتمع؛ ما هو السؤال الذي يبدو المك في المجتمع الحديث ملحاً أكثر من غيره؟

غادامير: كيف يمكن الحفاظ - لا فقط في النظرية أو حسب المبدأ، بل عملياً في الواقع - على شجاعة كل واحد منا على صياغة حكم شخصي والدفاع عنه، رغم تأثير الخبراء والمحكمين في الرأي العام.